

أثر الانزياح والتناص في التشكيل الجمالي لشعرية اللغة في الكتابة النسوية الجزائرية - نماذج مختارة -

The influence of Deviation and Intertextuality on the Aesthetic construction of Language Poetics in Algerian feminist writing –Selected case studies

أ.د. سامية جباري	ط.د زينب هرويني*
جامعة غرداية (الجزائر)	جامعة غرداية، (الجزائر)
	مخبر التراث الثقافي واللغوي والأدبي
	بالجنوب الجزائري
Djebari26@gmail.com	Herouini.zineb@univ-ghardaia.edu.dz

تاريخ النشر: 2025/12/26

تاريخ القبول: 2025/09/26

تاريخ الاستلام: 2025/06/29

ملخص:

تحفل الكتابة النسوية عامة والجزائرية خاصة بمجموعة من المكونات الجمالية والسمات الفنية التي تميزها عن الكتابة الذكورية. حيث يكتسب الأدب النسوي شعرية من عدة عناصر أهمها: التناص والانزياح أو التجاوز.....، إذ تتلاقح فيما بينها لتشكيل لغة مفعمة بالشعرية وتتجاوز المؤلف، لترقى بها إلى مصاف الكتابة الفنية.

نسعى من خلال هذه الورقة البحثية الموسومة بـ: أثر الانزياح والتناص في التشكيل الجمالي لشعرية اللغة في الكتابة النسوية الجزائرية - نماذج مختارة- إلى إمطة اللثام عن رهن الكتابات النسوية وإبراز جماليات اللغة وخصوصية الإبداع النسوي، والكشف عن شعرية اللغة واستنباط جماليات كتابتها، وذلك من خلال رصد ظاهرة الانزياح والتناص ومدى فاعليتهما في التشكيل الجمالي لشعرية اللغة.

الكلمات المفتاحية بالعربية: الانزياح، التناص، شعرية اللغة، الكتابة النسوية.

Abstract:

Feminist writing in general and Algerian writing in particular is full of aesthetic components and artistic features that distinguish it from male writing. Feminist literature acquires its poetry from several elements, the most important of which are: intertextuality, displacement or transgression....., as they cross-pollinate to form a language full of poetry and beyond the ordinary, to elevate it to the ranks of artistic writing. Through this intervention tagged with: The

impact of displacement and intertextuality on the aesthetic formation of language poetry in Algerian feminist writing - selected models - we seek to unveil the current feminist writings, highlight the aesthetics of language and the specificity of feminist creativity, and reveal the poetry of language and derive the aesthetics of its writing, by monitoring the phenomenon of displacement and intertextuality and their effectiveness in the aesthetic formation of language poetry.

Keywords: Deviation, Intertextuality, Language Poetics, Feminist writing.

1. مقدمة:

لقد عرف الأدب النسوي حضوراً لافتاً ومكانة هامة على مر العصور، فقد فرضت المرأة المبدعة حضورها من خلال نتاجها الأدبي رغم كل التغيرات مواكبة لمتطلبات المرحلة، ضامة صوتها أيضاً لتعبر عن قضاياها بطريقتها ولغتها الخاصة، إذ جعلت المرأة من الأدب عامة والنثر خاصة فضاء رحباً ومتنفساً تعبر فيه عن مواقفها، وتنادي بحريتها وبإنصافها متمردة عن واقعها المرير، معبرة عن الرفض للهيمنة والسيطرة الذكورية التي يفرضها المجتمع. لتفرض وجودها وتثبت ذاتها كأمراة محاولة تغيير الصورة النمطية في الوعي الجمعي للمجتمع رغم كل الإشكالات والمعوقات.

يكتسب هذا الخطاب الأدبي الإبداعي شعرية من خصائصه المميزة وطبيعته الفريدة، حيث ينبثق هذا الخطاب من رؤية فنية ومضمون غني، ما ينعكس جلياً في تنوع أساليبه ولغته، فضلاً عن تعدد موضوعاته والقضايا التي يعالجها. فالاطلاع على إنتاج الأدبيات الجزائريات يكشف عن ثراء هائل في النصوص التي تحمل بصمة إبداعية خاصة، تميزها عن غيرها و أثرت في فضاء الأدب، مما جعلها محط اهتمام القراء والنقاد على حد سواء، وفي ظل هذا الواقع، نشأت لدى البحث تساؤلات حول شعرية اللغة في الخطاب الأدبي النسوي، خاصة في ضوء ما ظهر في النتاج الأدبي الجزائري المعاصر، انطلاقاً مما جاءت به هذه الورقة البحثية؛ لتتلمس هذه التجربة الإبداعية، ساعية إلى تسليط الضوء على الاستخدام المبتكر والجريء للغة الذي يُضفي على النصوص طابعاً شعرياً فريداً، ومن بين الكاتبات الجزائريات اللاتي برزن في هذا المضمار، تحتل الكاتبة "حياة بن بادة" مكانة مرموقة، لا سيما من خلال نصوصها التي جمعت في كتاب "غبار من روح". وقد اخترنا للدراسة نماذج متنوعة من هذه النصوص التي تعكس بوضوح ظاهريّ الانزياح والتناص، ودورها الفعّال في إضفاء شعرية اللغة على النص، وبناءً عليه، جاءت هذه الدراسة الموسومة بعنوان: " أثر الانزياح والتناص في التشكيل الجمالي لشعرية اللغة في الكتابة النسوية الجزائرية - نماذج مختارة -"، التي تهدف إلى كشف جوانب التكامل المعرفي بين الخطاب الإبداعي، وأساليب تحليل الخطاب، وذلك من خلال منهجية أسلوبية تركز على نماذج من أعمال "حياة بن بادة". كما تهدف الورقة إلى إبراز جماليات اللغة وخصوصية الإبداع في الخطاب الأدبي، مع تحليل شعرية اللغة واستكشاف عناصر جمالياتها، عبر تتبع ظاهريّ الانزياح والتناص، ومدى تأثيرهما في التكوين الجمالي للنص، وفي هذا السياق، نسعى للإجابة على عدد من الأسئلة المحورية التي ستوجه بحثنا وتحليلنا للنصوص المختارة، بما يعزز فهمنا لشعرية اللغة في الكتابة النسوية الجزائرية المعاصرة.

- ما مدى فعالية الانزياح والتناص وأثرهما في التشكيل الجمالي لشعرية اللغة في الكتابة النسوية الجزائرية المعاصرة؟
- كيف ساهم الانزياح الأسلوبي في إنتاج البنية الجمالية والدلالية في نصوص "غبار من روح" لحياة بن بادة؟
- وكيف تمّ توظيف آليات التناص لخلق شبكة من التفاعلات النصية تُغني المعنى، وتعزز شعرية النص؟
- ولتحقيق هذا الهدف وضعنا خطة البحث على النحو التالي: بدأنا بمقدمة تمهيدية، ثم انتقلنا إلى استعراض مفهوم الانزياح، مع التركيز على تجلياته المختلفة؛ حيث تناولنا مظاهره التركيبية، مثل: التقديم والتأخير والحذف، إلى جانب المستوى الاستبدالي الذي ظهر من خلال الصور البلاغية، باعتبارها العنصر الأساسي الذي يضفي على النص طابعاً شعرياً وجمالياً مميزاً، بعد ذلك، خصصنا فقرة مستقلة للحديث عن ظاهرة التناص، التي تمثل ركيزة هامة في تشكيل الجمال اللغوي، مع التركيز بشكل خاص على التناص الديني الذي سيطر على النص، وتحكم في ملامحه الفنية، وفي الختام، أوردنا خلاصة البحث التي جمعت أبرز النتائج التي توصلنا إليها، مع تسليط الضوء على أثر الانزياح والتناص في بناء شعرية النص وجماليته.
- ## 2. الانزياح.

يمثل الانزياح أحد المفاهيم الجوهرية التي شغلت حيزاً كبيراً في مجال الدراسات الشعرية والأسلوبية، بوصفه أداة فاعلة في خلق التمايز الفني داخل النصوص الأدبية، وخاصة الشعرية منها. فالانزياح لا يُعدّ مجرد خرق لقواعد اللغة المألوفة، بل يُنظر إليه على أنه وسيلة جمالية تساهم في توليد الدلالة وتكثيفها، وتُضفي على النص طابعاً فنياً يُميّزه عن الخطاب العادي، ومن هذا المنطلق، لم يكن غريباً أن يحظى هذا المفهوم باهتمام واسع في الأوساط النقدية واللسانية، خصوصاً مع بروز الدراسات الأسلوبية الحديثة التي وجدت في الانزياح بنيةً لغوية مميزة، يمكن من خلالها تحليل الخطاب الشعري والوقوف على آلياته التعبيرية، وقد ارتبط هذا المفهوم ارتباطاً وثيقاً بالناقد، والمفكر الفرنسي "جون كوهن" (1919-1994)، الذي يُعد من أبرز من تناولوا الانزياح بالدراسة والتحليل، فقد خصّص كتابه الشهير "بنية اللغة الشعرية" للتأصيل لهذا المفهوم، ضمن سياق البحث الأسلوبي، مؤكداً أنّ الانزياح هو الجوهر الحقيقي للغة الشعرية، بل ركيزتها الأساسية التي تميّزها عن اللغة التداولية، ويذهب كوهن إلى أنّ كل ما يخرج عن المألوف في التعبير، ويكسر توقعات المتلقي، هو ما يمنح النص قيمته الشعرية، ويُحدث الأثر الجمالي المرجو، وهو ما يجعل الانزياح، في نظره، عنصراً لا غنى عنه لفهم طبيعة الشعر وآليات اشتغاله الأسلوبي.

فهو لا يكتفي بتفكيك محتوى الخطاب، بل يتوغّل في كيفية تشكّله لغوياً، مستقصياً الأشكال التي تنحرف بها اللغة عن مألوفها لتنتج أثراً فنياً مغايراً في السياق الأدبي، وخاصة في الشعر، أين يتبدّى هذا الانحراف أو "الانزياح" كعلامة فارقة تميّز الخطاب الإبداعي عن الخطاب التواصل اليومي، فهي علم الانزياحات المخالفة لنمطية النظام اللغوي، لأنّها تضع نُصب عينها دراسة تلك الظواهر اللغوية التي تُشكّل انحرافاً عن النمط السائد، وتُساهم في صياغة خصوصية الأسلوب، فالأسلوب، بهذا الفهم، ليس مجرد ترتيب للقول، بل هو بنية لغوية مقصودة تقصّد الاختلاف، وتعمل على إضفاء طبقات من الدلالة والجمال على النص¹، فالأسلوب الأدبي هو انحراف مقصود عن اللغة المألوفة، يلجأ إليه الكاتب لخلق تأثير

جمالي، وهو ما يُعرف بالانزياح، وقد يبدو هذا الخروج عن المعيار خطأ لغوياً، لكنه في حقيقته توظيف في وِاعٍ، كما وصفه برونو بـ "الخطأ المقصود" ومع ذلك، ليس كل انزياح يُعد جميلاً، فبعضه يُثمر عن أثر في، فيما يبقى البعض الآخر بلا قيمة جمالية، ما يطرح تساؤلاً حول ما يجعل بعض الانزياحات أدبية، وأخرى لا².

فالنص الأدبي يمتاز عن الخطاب العادي بقدرته على لفت الانتباه إلى شكل اللغة نفسها، لا إلى مضمونها فحسب، فالكتابة الإبداعية لا تكتفي بنقل المعاني، بل تهتم أيضاً بكيفية صياغتها، وغالباً ما تعتمد على انزياحات لغوية تُحدث فرقاً في وقع الكلام، ومن هنا، يرى عدد من الباحثين أنّ المظاهر اللغوية مثل: تكرار الأصوات، أو التلاعب بترتيب الكلمات، أو بناء تراكيب غير معتادة، ليست جزئية عرضية، بل أدوات فنية تهدف إلى خلق أثر جمالي، فاللغة، حين تُستخدم في السياق الأدبي، تتحوّل من وسيلة تواصل إلى عنصر جمالي بحدّ ذاته، وهذا ما يجعل تحليل تلك الانحرافات مدخلاً أساسياً لفهم الأسلوب وخصوصيته³.

ورغم اختلاف وجهات النظر في تعريف الانزياح، إلا أنّ علماء الأسلوبية يتفقون على كونه خروجاً مقصوداً عن قواعد اللغة الاعتيادية، يتحوّل به النص من أداة لنقل المعنى إلى وسيلة تؤثر في المتلقي بطريقة فنية مبتكرة. بهذا الشكل، يصبح الانزياح العنصر الأساسي الذي يضيف على النص طابعه الأدبي والشعري؛ من خلال تحدّيه لتوقعات القارئ، وكسر نمط استخدامه اللغوي المعتاد، وينقسم الانزياح إلى أنواع عدة، أهمها الانزياح التركيبي، الذي يتضمن عمليات، مثل: الحذف، بالإضافة إلى تبديل ترتيب الكلمات، أو استبدالها، وإلى انزياح استبدالي معروف لدى البلاغيين القدامى بالجاز والاستعارة، حيث تُستبدل كلمة بأخرى؛ لتحقيق معانٍ وجماليات جديدة داخل النص.

2.1. تجليات الانزياح في نصوص "غبار من روح" لحياة بن بادة:

يتجلى الانزياح بصُوره المختلفة في نصوص غبار من روح خاصة في نص "المرحلون من الشغف" و "نص" رسالة خريفية إلى صديقة بورمية"، وههنا في ورقتنا البحثية، سنركز على مستويين منه: الاستبدالي، والتركيبي.

2.1.1. الانزياح الاستبدالي:

حين نتناول الانزياح في شكله الاستبدالي، فإننا نغوص في بحر واسع من الظواهر البلاغية، تصدّرها الاستعارة التي تشكّل أساساً لا غنى عنه في بناء الشعرية. فالاستعارة ليست مجرد تقنية لغوية عادية، بل هي أداة تحوّل المعاني الجامدة إلى فضاءات متعددة ومتنوعة، تتغير بتغيّر السياق الذي تُستخدم فيه، فهذا الانحراف عن المعنى التقليدي يمنح الكلمة القدرة على حمل دلالات متعددة، ممّا يُثري النص، ويمنحه أبعاداً جديدة من العمق والثراء إلى جانب الاستعارة، يشمل هذا النوع من الانزياح، أيضاً أشكالاً أخرى، مثل: الكناية، والتشبيه، والجاز المرسل، إلا أنّ الاستعارة تحتفظ بمكانة متميزة لما تملكه من قدرة على تجاوز الربط المباشر بين الشيء المستعار والمستعار له، مما يوسّع دائرة الإيحاء والجمال عبر توسيع مدار اللغة وإعادة تشكيل الواقع عبر التعبير المجازي، فهي تُضفي على النص حيوية متجددة، وفرصاً دائمة للإبداع والابتكار، وانطلاقاً من هذا السياق، سنستعرض بعض الأمثلة الواضحة للانزياح الاستبدالي في نص "المرحلون من الشغف"، كما جسّدتها

الكاتبة ببراعة، كقوله: "لا وطن تعود إليه يفتح أزرار صدره، ويحتويها بذراعيه"⁴، حيث يُظهر في هذا المقطع الانزياح عنصر المفاجأة الذي يجذب انتباه القارئ، ويعزز من جمال النص وشعريته، حيث تمّ تصوير الوطن كشخص حيّ، يفتح قلبه ويحتضنك بين ذراعيه، كما لو أنه يفتح أزرار صدره ليكشف عن دفء مشاعره وحنانها، كما نلمس في قولها "كثير قديم متقاعد لم بعد يصلح للعطاء"⁵ تلجأ الكاتبة في هذا النص إلى استخدام انزياحات بلاغية بارزة تخلق في ذهن القارئ مشاهد غنية بالمعاني العميقة، فهي تصف البئر القديم المهجور، المملوء بالتراب والحجارة، بأنه يشبه الشيخ العجوز الذي فقد عافيته وقوته، مما يرمز إلى حالة من الضعف والانهزام، وتستمر هذه الانزياحات لتجسّد حالة المرحل من الشغف الذي طال انتظاره، فتشبهه بـ "اللحم المتبل والمملح" الذي بقي لفترة طويلة دون تغيير، معبرة بذلك عن شعور الإعياء والجمود، كذلك، تصف المرحّل كطفل يُقدّم له طعاماً مملاً لا يرغب به، في حين يُصوّر الأمل على أنه حصن محاصر لم يعد يحتمل المزيد من الضغط، فاختر الانسحاب والخسارة بدلاً من القتال المستمر، حيث يظهر هذا الإحساس بوضوح في قوله: إني كلما أطعمتك الأمل تمل، يا صديقي، حتى الأمل ما عاد يُطبق الحصار، وما عاد يقوى على الانتصار، حيث تعكس الكلمات عميق مشاعر الإحباط واليأس بشكل مؤثر⁶، مما زاد في شعرية اللغة، وبناء الدلالة.

وفي صورة انزياحية مختلفة، نجد قولها: "وها هي أحلامك ذات العماد لم يتبقّ منها إلا الرماد"⁷، حيث يتجلى الانزياح في هذا البيت الشعري؛ من خلال تصوير الأحلام التي عادةً ما ترتبط بالتفاؤل والحياة، على شكل رماد يرمز إلى النهاية والدمار، فبدلاً من أن تبقى الأحلام نابضة بالحياة والأمل، يُظهرها الشاعر متلاشية ومحتركة، فلا يتبقى منها سوى "الرماد" الذي يعكس الخسارة والانكسار، هذا التحوّل المفاجئ في المعنى يُحدث صدمة للقارئ، إذ يتخلى عن التوقعات المعتادة التي ترى الأحلام كرموز للضوء والإشراق، ليُقدّم بدلاً من ذلك صورة قاتمة تمتلئ بالحزن والخذلان، مما يعمّق الأثر الشعري، ويثير إحساساً قوياً لدى المتلقي.

2.2.2. الانزياح التركيبي:

يُشكّل الانزياح التركيبي بُعداً إبداعياً في بنية النص الأدبي، إذ يستثمر الخروج عن البناء النحوي المعتاد؛ بوصفه أداة جمالية لا مجرد خرق للقاعدة، ففي هذا المستوى، لا تُراعى الصياغات التقليدية؛ من تقديم وتأخير أو حذف أو تغيير مواقع الكلمات على نحو اعتباطي، بل يُعاد ترتيب البنية اللغوية بطريقة تضيف للنص طاقة تعبيرية جديدة، تثير دهشة المتلقي وتمنحه فرصاً مفتوحة للتأويل، وهذا ما أشار إليه "أراغون" حين أكّد أنّ الشعر لا يُولد إلا من خلال إعادة خلق اللغة، عبر تفكيك بنيتها الثابتة وزعزعة قوانينها المألوفة، فالتقديم والتأخير، على سبيل المثال، لا يُستخدم، هنا، لأغراض بلاغية تقليدية فحسب، بل يُصبح أداة لتوسيع أفق المعنى، وتحويل الإشارات اللغوية إلى سلسلة حية من الانزياحات، تحرّر النص من سلطة التركيب النمطي، وتدفع به نحو فضاءات تعبيرية أكثر اتساعاً ومرونة⁸.

في تحليلنا للانزياح التركيبي في هذا النص، نركّز على أبرز مظاهره المتمثلة في أسلوبيّ: التقديم والتأخير، والحذف، كما تتجلى في العديد من المواضع التي تمنح النص بُعداً فنياً ودلالياً خاصاً، ومن ذلك قول الكاتبة في تصويرها لحال المرحلين من

الشغف الذين تركوا أوطانهم: "بعيدًا طاروا، سربًا سربًا، لبلادٍ يسميها المنفيون إليها غربة"، نلاحظ هنا توظيفًا لانزياح تركيبية؛ من خلال تقديم الحال "بعيدًا" على الفعل "طاروا"، وهو ما يلفت الانتباه إلى فكرة البعد كمعادل للغربة، ويمنح العبارة شحنة دلالية أقوى، إذ تبدأ الكاتبة بالكلمة التي تعبّر عن الجوهر العاطفي للمشهد، قبل ذكر الفعل ذاته⁹، ونرصد كذلك تكرار نمط مماثل في مواقع متعددة داخل النص، ومنها مخاطبة الكاتبة للمرحل من الشغف، بقولها: "مرحل أنت من الشغف ذاك الذي شاهدتك تضع عليه الطلاء عدة مرات"¹⁰، ونلاحظ في هذا الموضع من النص انزياحًا تركيبياً؛ من خلال تقديم الخبر "مرحل" على المبتدأ "أنت"، في مخالفة للترتيب النحوي المعتاد الذي يقتضي القول: "أنت مرحل من الشغف"، غير أنّ هذا التقديم لم يكن اعتباطياً، بل جاء لتحقيق غاية دلالية تتمثل في التخصيص والتوكيد، حيث يُسلط الضوء على حال المرحّل باعتبارها الصفة الأبرز للمخاطب، وبهذا الترتيب، لا يكون الهدف مجرّد نقل للمعلومة، بل يتعداه إلى الإيحاء بعاطفة خفية من التعاطف والمواساة، إذ يبدو المتكلم وكأنه يصف حالاً مأساوية تهم المخاطب وحده، ما يمنح العبارة وقعاً نفسياً أعمق، وأثراً شعورياً أكثر تأثيراً.

يظهر لنا انزياح آخر، من خلال تقديم شبه الجملة "بالذكريات" على الفعل "عرجوك" "ومع ذلك أخرجوك، وبالذكريات عرجوك"¹¹، بالتركيز على الذكريات لما لها من أهمية كبيرة في هذا السياق، وللمحافظة أيضاً على الإيقاع بين العبارتين.

وبالتأمل في قولها: "وكم شاهدتك تكافح لأجل ذلك اللهب، كالنملة تأتي وتذهب، كالأم تشقى وتتعب"¹²، حيث نُلفي انزياحات مترادفة خرقت فيها الكاتبة ترتيب الجملة لتفاجئ المتلقي، ولكي تحقّق توازن الجملة إيقاعياً من خلال السجع بين تلك الجمل "كالنملة تأتي"¹³، انزاحت بتقديمها لشبه الجملة "كالنملة"، وهي "حال"، على الفعل "تأتي"، وتردّف قائلة "كالأم تشقى وتتعب"¹⁴، حيث قدّمت شبه الجملة، "كالأم"، على الفعل "تشقى".

تواصل الكاتبة انزياحاتها، من خلال تلاعبها بعناصر الجملة تركيبياً بالتقديم تارة، والتأخير تارة أخرى، فتقول "مرحل من الشغف، محمّل بالخذلان أنت، كأكياس بلاستيكية على الغصون جثت، مجهول من أين أتت"¹⁵، في هذا الموضع من النص، يظهر انزياح تركيبية واضح من خلال كسر الترتيب التقليدي لعناصر الجملة، فالمبتدأ "أنت" جاء مؤخراً، بينما قدّم الخبر "محمّل بالخذلان"، ليُصبح التركيز منصباً على شحنة الخذلان التي يحملها المخاطب، وهو "المرحل من الشغف"، فهذا الترتيب غير المألوف ليس الهدف منه الإخبار، بل يُضفي مسحة من الحزن والتحسّر، فيقرأ الخذلان وكأنه كتلة متراكمة في داخله، تُعرّف به أكثر مما يُعرّف هو بنفسه، كذلك، يتجلّى الانزياح في تأخير الفعل "جثت" بعد تحديد المكان "على الغصون"، مما يوحي بأنّ هذه الأكياس التي شُبّه بها المرحّلون اتخذت بنفسها وضعية الاستسلام، وكأنّها كائنات حية اختارت الجنو في مكان ما، لا بفعل قسري، بل بإرادة يراها الآخرون ظالمة. وفي هذا التقديم والتأخير تكمن دلالة رمزية تحمل الكثير من الإيحاءات، حيث تنقل الكاتبة مشاعرها المعقدة تجاه هؤلاء المرحّلين وما يمثّلونه من خيبة واتهام ضمني، ومن أمثلة الانزياح التركيبية، أيضاً، قولها: "كم مرة شاهدتهم يؤجلون أحلامك، يمزّقون في الخفاء أعلامك،

ينسفون أمنيّاتك"¹⁶، حيث تقدّم شبه الجملة "في الخفاء"، على المفعول به، "أعلامك"، والأصل في التركيب "يمزقون أعلامك في الخفاء". وقد فاجئ هذا التجاوز المتلقي من جهة، وحافظ على الإيقاع وتوازن العبارات من جهة أخرى، ومن الانزياح نذكر، أيضا "وبالحزن الزائد خيلوك"¹⁷، حيث تمّ تقديم شبه الجملة على الفعل "خيلوك"، والأصل في الترتيب "خيلوك بالحزن الزائد"، وفي هذا التقديم حفاظ على السجع، وتوازن العبارة إيقاعيا، وفيها تنبيه للمخاطب وتأكيد له بأنّ كل آهاته مسموعة ومشهود عليها.

وتتجلى لنا انزياحات أخرى بقوة في نص "رسالة خريفية إلى صديقة بورمية"، حيث يطالعنا انزياح في قولها "الأشجار لا تعترف بالعاطفة"¹⁸ فقد شبهت الأشجار بالإنسان، فالأشجار في الخريف لا تتعاطف مع بعضها البعض في "دورة حياة الشجر" فبالرجوع إلى دورة حياة الشجر نجد أن الأشجار أنانية وغير متعاطفة مع بعضها البعض خاصة في فصل الخريف، والشجرة الكبيرة تتعالى على الشجرة الصغيرة خاصة إذا ما غرستنا جنبا إلى جنب وأسقطتها على الإنسان الذي انعدمت فيه العاطفة والاحساس بالآخرين وبمآسي أشقائنا المسلمين في بورما وما يعانيه من تقتيل وذبح واضطهاد. توظف الكاتبة بعض الانزياحات في هذا المقطع حيث تقول: "لكلّ ورقة يا أختاه نصيبها من الأحضان ونصيبها من الألوان ونصيبها من الأحزان ولا نصيب لها من الأكفان، كلّ أوراق الخريف تدفن جريحة وعارية ومحروقة وباكية، نحن فقط من نحاول ستر عورتها داخل أوراقنا الاصطناعية لتستتر علينا، فيفضح حضورها بين السطور أشجاننا وكم أخشى أنا أن يستمرّ خريف كتاباتي، لكنّي لسوء حظّي على مدى ما يحدث في العالم من حولي كأوراق الخريف المنتحرة أو الشهيدة، لا شيء يوقف ثورتي ولا هيئة يستوقفها غصبي وألمي، ولا زال الناس يسألوني عن الحزن المغروس في عينيّ".¹⁹ في هذه العبارة "كل أوراق الخريف تدفن جريحة وعارية ومحروقة وباكية" استعارة مكنية انزاحت الكاتبة من خلالها فقد شبهت سقوط وفناء حياة أوراق الشجر في الخريف بالبورميين الذين يموتون تباعا بشتى الطرق وبأشنع وسائل التعذيب، "وكم أخشى أنا أن يستمرّ خريف كتاباتي" تقصد بها حزن كتاباتها "بالحزن المغروس" هنا انزياح فقد شبهت الحزن بنبتة تغرس في عيناها وتسقى الدموع المتهاطلة وجعا على وضع المسلمين في أرجاء العالم.

وبعد استعراض نماذج الانزياح الاستبدالي والتركيب ودراستها نجد أنها قد صيغت بأسلوب جديد تجاوز النمط السائد في التعبير لروعة بيانه التي تدهش المتلقي وتكسر أفق توقعه وتشده خاصة أنها جمعت بين جمال اللفظ والمعنى واستعمالهما في غير ما وضع لهما، فارتقت لغتها إلى مستوى اللغة الشعرية لأنها خالفت اللغة العادية في أسلوبها "يمكن أن نشخص الأسلوب بخط مستقيم يمثل طرفاه قطبين، القطب الشرقي الخالي من الانزياح والقطب الشعري الذي يصل فيه الانزياح إلى أقصى درجة، ويتوزع بينهما مختلف أنماط اللغة المستعملة فعليا"²⁰ وقد تحقق هذا في لغة نصوص غبار من روح.

3. التناص "intertextuality":

يعتبر التناص من المفاهيم الرئيسة التي شكّلت منعطفًا هامًا في الدراسات النقدية المعاصرة، نظرًا لما يحمله من إمكانيات كبيرة في قراءة النصوص الأدبية من زوايا جديدة، وقد أولته مدارس فكرية كالشعرية، وما بعد البنيوية، والسيمياء، واللسانيات النصية، عناية خاصة، لما يوفّره من أدوات تتيح استكشاف العلاقات الخفية والمتشابكة التي تنسج النصوص مع غيرها، وتساهم في تفكيك بنيتها الظاهرة وكشف طبقاتها العميقة، فمن خلال التناص، لا يُفهم النص الأدبي على أنه وحدة مغلقة ومنعزلة، بل يُنظر إليه بوصفه كيانًا مفتوحًا يتداخل مع نصوص أخرى، حاضرة أو غائبة، بشكل مباشر أو غير مباشر²¹، فقد يستند الكاتب إلى نص سابق عبر الاقتباس أو التضمن، وقد يكتفي بالتلميح أو الاستدعاء الرمزي أو إعادة صياغة فكرة مألوفة بطريقة جديدة، وكلها أشكال مختلفة لحضور النصوص السابقة داخل النص الراهن، وهذا التفاعل بين النصوص لا يُفقد النص الجديد استقلاله، بل على العكس، يُثريه ويمنحه عمقًا دلاليًا وجماليًا، إذ يصبح النص بمثابة شبكة تواصل بين ثقافات وخطابات متعددة، ومن خلال هذا التداخل، تتوسع دائرة التأويل، حيث يفتح النص على قراءات جديدة تركز على علاقاته الحوارية مع ما سبقه من نصوص. وهكذا، يتحوّل النص إلى لوحة فسيفسائية من الأصوات والرؤى والمعاني، تتداخل فيها الذكريات النصية والتجارب الثقافية لتخلق نسيجًا أدبيًا غنيًا ومعقدًا، يدعو القارئ إلى التفاعل والتأمل وإعادة الاكتشاف²²

وقد ظهر هذا المفهوم لأول مرة على يد جوليا كريستيفا في ستينيات القرن العشرين، التي رأت أنّ النص ليس كيانًا مغلقًا أو إنتاجًا ذاتيًا منعزلًا، بل هو فضاء تتقاطع فيه أصوات وتجارب ونصوص أخرى، وقد وصفت كريستيفا التناص بأنه عملية امتصاص وهدم متزامن للنصوص الأخرى، ممّا يدلّ على تفاعل النص الجديد مع مخزون ثقافي وأدبي سابق، يتحوّل فيه الاقتباس أو التلميح أو الاستدعاء إلى جزء أصيل من بنيته، و لم يتوقف تطوير هذا المفهوم عند كريستيفا²³، بل تولاه عدد من المفكرين والنقاد الذين أسهموا في تعميقه، مثل: رولان بارت، ولوران جيني، ومارك أنجي، وميشيل أريفي، إلى أن جاء جيرار جينيت الذي أعاد صياغة نظرية التناص ضمن إطار أكثر اتساعًا، حيث دمجها فيما سماه بـ "التعالى النصي"، موضّحًا أنّ ما يهتمّ في دراسة النصوص هو علاقتها بما سبقها أو أحاط بها من نصوص أخرى، لا النص بذاته، ومن هنا، يرى "جينيت" أنّ الشعرية الحقيقية لا تنبع من ذاتية النص فقط، بل من شبكة العلاقات التي ينسجها مع غيره من النصوص، سواء على مستوى الشكل أو المعنى، و بهذا التصور، يتحوّل النص الأدبي إلى مساحة ديناميكية من الحوار الثقافي والمعرفي، تغذيها نصوص أخرى قد تكون ظاهرة أو خفية، مباشرة أو ضمنية، وهو ما يجعل من التناص أداة ضرورية لفهم النصوص المعاصرة وتأويلها، حيث يصبح كل نص جديد صدئ لنصوص قديمة تسكن بين سطوره وتمنحه عمقًا وثراء دلاليًا²⁴.

1.3. تجليات التناص الديني في نص " المرحلون من الشغف":

يتجلى التناص في صور مختلفة كالأدبي، والتاريخي، وصولاً للديني، ولا سيما مع النصوص القرآنية والأحاديث النبوية، حيث يعدّ هذا الأخير أبرز أشكال التفاعل النصي في الأدب العربي الحديث، لما يحمله من عمق روحي ورمزي

يجعل النصوص المعاصرة أكثر ثراءً وتأثيراً، فالأدباء غالباً ما يلجؤون إلى استدعاء المقدّس، لا بهدف الاقتباس فقط، بل لاستثمار قوته الرمزية في التعبير عن مواقف إنسانية معاصرة، تمنح أعمالهم بُعداً تأويلياً واسعاً، وشحنة وجدانية مضاعفة. ويبدو هذا التوظيف جلياً في نص "المرحلون من الشغف" للكاتبة حياة بن بادة، التي استعانت بالنص القرآني لبناء صور فنية ذات دلالات متداخلة بين الإيمان والإنساني، أين نجد في أحد المقاطع، قول الكاتبة: "بحث عنهم بين نفر، سألتهم ما سلككم في سفر؟ قالوا لم نك من المفسدين، ولم نكن نظلم المسكين، وكنا كلما حاولوا إطفاء نار الشغف فينا أشعلنا فتيلاً وراء فتيل، حتى أتانا قرار الترحيل، من الشغف رحلنا، وها نحن قد رحلنا"، وهذا المقطع يحمل في طياته تناصاً واضحاً مع آيات سورة المدثر يقول الله تعالى ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمَسْكِينِ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ حَتَّى أَتْنَا الْيَقِينَ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّفِيعِينَ﴾ (المدثر 42-48)، سواء على مستوى البنية السردية القائمة على الحوار السؤال/الجواب، أو على مستوى الإيقاع والمفردات، غير أنّ الكاتبة أعادت إنتاج المعنى بشكل معاصر، فبدلاً من تصوير عاقبة الكفر، كما في النص القرآني، نُقل المشهد إلى فضاء اجتماعي/نفسى يتحدث عن الغربة والخذلان، حيث يستبدل "سقر" بـ"سفر"، ويستبدل العقاب الأخروي بإقصاء واقعي، هو ترحيل من الشغف والحياة.²⁵

ويطالعنا تناص آخر، في قولها: (وسيق المرهلون من الشغف إلى أحضانها زمراً، حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها في وجوههم عزموا أن ينسوا، وأن يباشروا الحياة من جديد بما تعلّموا)، وهنا تناص آخر بأسلوب خارج عن المألوف تدعم فيه الكاتبة فكرة وإحساس العيش في بلد آخر غريب يحترم الكفاءات في مشهد يحاكي مشهد الدخول للجنة الوارد في القرآن الكريم إذ يقول الله تعالى في وصف المشهد ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ (الزمر 83-84)²⁶

يتجلى في نص الكاتبة تناص آخر، حين تقول: "هل أتى على النسيان حين من القهر لم يكن شيئاً مقبولاً"، وهو تناص واضح مع آية من القرآن الكريم: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ (الإنسان: 1). لكن الكاتبة لم تقتصر على النقل المباشر، بل أعادت صياغة العبارة بأسلوب مبدع، مستبدلة كلمة "الإنسان" بـ"النسيان"، و"الدهر" بـ"القهر"، و"مذكوراً" بـ"مقبولاً"، فهذا التبديل في الكلمات، التي تشترك في نهايات صوتية متشابهة، أضفى على العبارة جرياناً موسيقياً وانسيابية لغوية تزيد من رقيها الشعري وجمالياتها الأسلوبية، وعلى الرغم من أنّ "هل" في اللغة تبدو استفهامية، فإنّ التفاسير القرآنية - مثل تفسير الطبري - تؤكد أنّ هذه الكلمة هنا، تأتي بمعنى: التأكيد والتقرير، أي: "قد"، لتثبت حدوث الأمر، ومن خلال هذا الفهم، تؤكد الكاتبة أنّ النسيان ذاته، حتى عندما وصل إلى حالة من القهر والعجز، لم يكن مقبولاً لدى الشباب، الذين ظلوا متمسكين بوطنهم وذاكراتهم، لكن مع انتهاء شغفهم وذهاب

أحلامهم، وبلغوا قمة اليأس، صار النسيان هو الخيار الوحيد، فاختاروا طي صفحة الماضي وبدء حياة جديدة بعيداً عن وطنهم، ثم يطلّ علينا تناص آخر في صياغة رائعة حين تقول: "مُرَّحَلْ أَنْتَ مِنَ الشَّغْفِ، تَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمَ الْفَرَجِ" ²⁷، حيث تتجلى في هذه العبارة دلالة عميقة على الانتظار والاشتياق، وطرح السؤال كصورة شعرية تعبّر عن حالة الترقّب والقلق التي يعيشها المرحّلون من أحلامهم وشغفهم، وفيه تناص مع قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (القيامة-6)، كأنّ يوم الفرج بعيد ومجهول الموعد كيوم القيامة.

فالأحزان بسطت أحضانها لهم، واحتوتهم بسعتها كما تتسع الأرض وتحتوي موتاهها، لكن الأحزان بحدّ ذاتها تخلّت عنهم واستفرغتهم كما تستفرغ الأرض الموتى، وتلفظهم وألقتهم لله، والله دبر أمرهم في الغربة وعوضهم خيراً. ومن التناص القرآني الممزوج مع أسلوب الكاتبة، قولها "بعض الناس يدعون عن نار الشغف، يا صديقي، دعاً، يُرَحِّلُون عن أحلام لطالما بدّت قطوفها دانية، يصوّب قطع الطرق سهامهم نحوها على أشواط، فإذا هي تمور، وإذا بها فانية، لا نرى لها من باقية." ²⁸

أين تستدعي الكاتبة في نصها آيات من سور قرآنية مختلفة، فتدججها بأسلوب متقن ضمن سياق واحد، حيث يظهر تناص واضح مع قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا﴾ (الطور: 13)، بالإضافة إلى الآية ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ (الحاقة: 23)، كما تستعير من سورة الملك قوله تعالى: ﴿آمَنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ (الملك: 16)، وتعود مجدداً إلى سورة الحاقة في الآية ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾ (الحاقة: 8)، وهذا التناص القرآني يتناغم بتناغم عميق مع المعاني الواردة في النص، حيث يوضّح ويؤكد تلك المعاني، ويضيف إليها بُعداً جمالياً غنياً، و قد امتلأ النص بألفاظ قرآنية، وصور ضمنية وصريحة مستمدة من هذه الآيات، مما أعاد إحياء النص القرآني الغائب بشكل فني مبتكر، وبهذا التوظيف الذكي، نجحت الكاتبة في إثراء النص بجمالية خاصة، ومنحت أسلوبها قوة في الإيحاء ورهافة في التعبير.

4. خاتمة:

إنّ لتوظيف الانزياح والتناص فاعلية وأثر كبير في التشكيل الجمالي لشعرية اللغة في نصوص "غبار من روح" لحياة بن بادة، لاسيما في نص "المرحّلون من الشغف" حيث يمتلك جمالية لغوية مميزة تنبع من توظيفها المتقن للانزياح والتناص، ممّا أضفى على النص عمقاً شعرياً وحيوية خاصة، إذ يتّضح لنا من التحليل أنّ الكاتبة استطاعت، عبر الانزياحات اللغوية، أن تصنع تعبيرات مبتكرة غير تقليدية، تُحرّك اللغة وتمنحها أبعاداً جديدة تنبع من التفاعل مع الواقع بأسلوب غير مألوف، حيث تجاوزت التشبيهات السطحية إلى ملامسة المماثلات النفسية العميقة التي تتيح للقارئ أن يستحضر صوراً متعددة، ويعيش التجربة الشعورية ذاتياً، كما يتجلّى حضور التناص الديني، وخصوصاً المستمد من القرآن الكريم، في نصوص الكاتبة بشكل واضح وجلي، إذ يستمد خطابها بلاغة وإيقاعاً من البيان القرآني، ممّا يضيف على نصوصها رونقاً فريداً وجاذبية خاصة تنبض بالحياة، فالتناص، هنا ليس مجرد اقتباس أو استدعاء، إنّما هو اندماج عضوي يجعل النص الأدبي فيسفساء

غنية تتشكل، من خلال تداخل النصوص المقدسة مع خيال المبدعة وثقافتها، لتنتج نصًا جديدًا يحمل في طياته دلالات متجددة وأثرًا عميقًا، وتكشف هذه الممارسة عن مرجعية دينية متجذرة في وجدان الكاتبة، حيث تمنح لغتها قوة وجمالية راقية تلتقي بين الأصالة والابتكار، فتخلق تأثيرًا لغويًا يحمل توقيعًا خاصًا ويكسر توقعات المتلقي. علاوة على ذلك، تبرز هذه الأساليب أحيانًا كإيقاع موسيقي وتناغم ترتبي يحاكي إلى حد بعيد الإيقاع القرآني، مما يعزز التجربة الجمالية والنفسية للنص.

5-الهوامش:

¹ - ينظر: جون كوهن: **بنية اللغة الشعرية** تر: محمد الولي ومحمد العمري، دار توبقال للنشر، ط1، الدار البيضاء، المغرب، 1986، ص:16.

² - ينظر: المرجع نفسه، ص:15.

³ - ينظر: مسعود بودوخة: **الأسلوبية وخصائص اللغة الشعرية**، عالم الكتب الحديث، ط1، إربد، الأردن، 2010، ص:20.

⁴ - حياة بن بادة: **غبار من روح**، دار فواصل للنشر والإعلام، دون طبعة، الجزائر، غرداية، دون تاريخ نشر ص:14

⁵ - حياة بن بادة: **غبار من روح**، ص:14.

⁶ - ينظر: حياة بن بادة: **غبار من روح**، ص:14.

⁷ - المرجع نفسه، ص:14.

⁸ - ينظر: يوسف أبو العدوس، **الأسلوبية الرؤية والتطبيق**، دار المسيرة للنشر والتوزيع، ط1، عمان، الأردن، 2007، ص:188.

⁹ - ينظر: حياة بن بادة: **غبار من روح**، المرجع السابق، ص:12.

¹⁰ - المرجع نفسه، ص:13.

¹¹ - المرجع نفسه، ص: 13

¹² - المرجع نفسه، ص:13

¹³ - المرجع نفسه، ص: 13.

¹⁴ - ينظر: المرجع نفسه، ص:13.

¹⁵ - المرجع نفسه، ص:14.

¹⁶ - المرجع نفسه، ص:14.

¹⁷ - المرجع نفسه، ص:16.

¹⁸ - حياة بن بادة: **غبار من روح**، ص:81.

¹⁹ - حياة بن بادة: **غبار من روح**، ص، ص:81،82.

²⁰ - جون كوهن: **بنية اللغة الشعرية**، ص:24.

- ²¹ - ينظر: محمد عناني: المصطلحات الأدبية الحديثة دراسة ومعجم إنجليزي-عربي، دار نوبار للطباعة، ط3، مصر القاهرة، 2003، ص:47.
- ²² - ينظر: أحمد الزعي: التناص نظرية وتطبيقا (مقدمة نظرية مع دراسة تطبيقية للتناص في رواية رؤيا لهاشم غرايبة وقصيدة راية القلب لإبراهيم نصر الله)، مؤسسة عمون للنشر والتوزيع، دون طبعة، عمان، دون تاريخ نشر، ص: 11.
- ²³ - ينظر: جوليا كريستيفا: علم النص، ترجمة: فريد الزاهي، دار توبقال للنشر، ط1، المغرب، الدار البيضاء، 1991، ص:43.
- ²⁴ - ينظر: محمد مداور: فاعلية التناص في التشكيل الجمالي للنص الشعري الجزائري المعاصر قصيدة "تغريبة المهاجر" لابن الزيبان، أموذجا، مجلة جسور المعرفة، مجلد 05، عدد 02، ص: 166.
- ²⁵ - المرجع نفسه، ص:12.
- ²⁶ - المرجع نفسه، ص:13.
- ²⁷ - المرجع نفسه، ص:13.
- ²⁸ - المرجع نفسه، ص:15.

6. قائمة المراجع:

- أحمد الزعي: التناص نظرية وتطبيقا (مقدمة نظرية مع دراسة تطبيقية للتناص في رواية رؤيا لهاشم غرايبة وقصيدة راية القلب (لإبراهيم نصر الله)، مؤسسة عمون للنشر والتوزيع، دون طبعة، عمان، دون تاريخ نشر.
- جوليا كريستيفا: علم النص، ترجمة: فريد الزاهي، دار توبقال للنشر، ط1، المغرب، الدار البيضاء، 1991.
- جون كوهن: بنية اللغة الشعرية، تر: محمد الولي ومحمد العمري، دار توبقال للنشر، ط1، الدار البيضاء، المغرب، 1986.
- حياة بن بادة: غبار من روح، دار فواصل للنشر والإعلام، دون طبعة، الجزائر، غرداية، دون تاريخ نشر.
- محمد عناني: المصطلحات الأدبية الحديثة دراسة ومعجم إنجليزي-عربي، دار نوبار للطباعة، ط3، مصر القاهرة، 2003.
- محمد مداور: فاعلية التناص في التشكيل الجمالي للنص الشعري الجزائري المعاصر قصيدة "تغريبة المهاجر" لابن الزيبان أموذجا، مجلة جسور المعرفة، مجلد 05، عدد 02، 2019.
- مسعود بودوخة: الأسلوبية وخصائص اللغة الشعرية، عالم الكتب الحديث، ط1، إربد، الأردن، 2010.
- يوسف أبو العدوس، الأسلوبية الرؤية والتطبيق، دار المسيرة للنشر والتوزيع، ط1، عمان، الأردن، 2007.